

الطب

(بقلم عبدالعزيز بنعبدالله)

– **الطب** : إذا كان الطب قد عرف بالعالم الإسلامي عامة وبالمغرب خاصة نوعا من القداسة جعلت منه طرفا من العلوم الإسلامية فإن أول مجال ازدهر فيه تدريس علم الطب هو المسجد الذي يرمز إليه في بلادنا بجامع القرويين وباقي جوامع المملكة. وقد كان الإمام الشافعي يقول "لا أعلم علما بعد الحلال والحرام أنبل من الطب". وكان يتلهف على ما ضيع المسلمون من الطب ويقول : "لقد ضيعوا ثلث العلم ووكلوه إلى اليهود والنصارى". ونحاول هنا رسم صورة واضحة عن تعليم الطب ومناهجه في جامعة القرويين ومختلف مساجد المغرب ومنها (رباط الفتح). وذلك من خلال تطور مختلف مراكز الدراسة والبحث والتدريس من معاهد ومستشفيات وعيادات فردية وجماعية عامة أو تخصصية . وأخيرا دكاكين العلاج التي أمست آخر ملجأ لتطبيقات فقدت الكثير من مقوماتها العلمية الصحيحة وسنبرز هذه الظاهرة بتحليل عنصرين أساسيين هما : أصناف الأمراض والعاهات التي عرفها هذا الجزء من العالم وكذلك أنواع الاختصاصات التي واجهت هذه الأمراض مع ما اتسمت به من أسباب الوقاية ووسائل العلاج.

ولعل من أكد ما وجب التعرف عليه قبل هذا وذاك، الملابس والظروف التي كلفت البيئة الإسلامية والتي جعلت منها مسرعا لاختيارات وتوجهات كانت أساسية للمفاهيم الطبية ومميزاتها وتطوراتها .
نعم، إن التنظير بين تعاليم الإسلام كدين وسلوك اجتماعي، وبين الطب كعلم وقوام حيوي في المجتمع ليبرز لنا هذا اللون من المعرفة الإنسانية كبنية جوهرية تكيف هيكل المجتمع وتسهر على سلامته المادية التي تعزز سلامة الروح الموكولة هي الأخرى إلى علماء الدين . بل إن المنهج الرئيسي الذي طبع تعاليم الإسلام هو المبدأ الذي يعطي الأسبقية لحفظ الأبدان على حفظ الأديان، فلهذا نجد الكثير ممن تخصص في العلوم الدينية قد عززها بالمشاركة في الطب وما يتصل به من نفسيات وصيدلانيات. وإن تاريخ الفكر الإسلامي ليحفل بهذا الحجم المتصاعد من جهابذة المعرفة الذين نهلوا من المنبعين لضمان التوازن بين عنصري المادة والروح، فمن صميم الفكر الإسلامي ما انتظم في القرآن والحديث من مبادئ حول نظام التغذية والوقاية الصحية ومكافحة الغوليات (الكحوليات) والمخدرات، مع العمل الدؤوب المتوازي من أجل تربية النفس التي تشكل دعامة ومنطلق أمراض عصبية دلت الإحصاءات على أنها تمثل في العصر الحديث في مناطق متطورة نحو تسعة أعشار الإصابات البشرية. ونحن نلمس فعالية وجدوى هذه التعاليم في نطاق منهج استقرارني يحل تطور الإنسان منذ تكوينه في الرحم إلى أن يكتمل وينمو ويتزعرع، ثم يهرم وينهار مع ما يتخلل ذلك من ظواهر وأحداث مما يشكل العمود الفقري لمناهج الدراسة الإنسانية في كل مجالاتها واختصاصاتها . ونحن نتجاوز الآن – نظرا لضيق المجال – التحليل العلمي الدقيق لمحتويات القرآن والحديث في هذا الصدد، مركزين أكثر على كشوف ومعطيات تحدت في ظل الإسلام من خلال تجارب علماء الإسلام شرقا وغربا. وإذا كان الفكر المنطقي في مجراه العلمي ومجالاته الجامعية لم يطبع الحركة العلمية الطبية بأوربا إلا في القرن التاسع عشر مع ظهور كلود بيرنار (Claude Bernard) الذي وضع أسس منهجية الطب التجريبي في العصور الحديثة، فإن المجتمع الإسلامي قد عرف منذ القرن الثالث الهجري أو التاسع الميلادي، أي قبل ذلك بألف عام منهجا تجريبيا في مختلف العلوم وخاصة الطب .

وقد شكلت المساجد وفي ظليعتها جوامع الزيتونة والأزهر والقرويين معاهد أولى للطب انطلقت في تدريسها مما يسمى بالطب النبوي الذي بلغت أحاديثه المتعلقة بالأدوية والأدواء (أي الأمراض) ثلاثمائة تبلورت في ستة مؤلفات نقل بعضها (بيرون) إلى الفرنسية وحل بعضها الآخر (ريسك) في رسائله الطبية و(كانبي) في (حياة محمد) حيث رسم فكرة سامية عن علم الرسول عليه السلام . غير أن محتوى هذه المصنفات لم يكن – في نظري – سوى مجموعة تجارب قبلية استقاها الرسول عليه السلام – حسب زوجته عائشة – من الوفود التي كانت ترد عليه . أما الأحاديث النبوية الصحيحة التي لها مفهوم

طبي فإنها لا تزيد على العشرة معظمها وارد في الصحاح كحديث الكلب والذئب (وهو ما حله مؤتمر للأطباء انعقد عام 1930 بلندن فأيد وجهة نظر الرسول صلى الله عليه وسلم) وكذلك حديث فعالية العدوى الوارد في صحيح مسلم :
"لا يورد ممرض على مصح". وحديث الحجر الصحي : "إذا كان الطاعون في أرض فلا تدخلوها وإذا كنتم فيها فلا تخرجوا منها" وحديث الطبراني الذي حل منذ أزيد من أربعة عشر قرنا مشكلا لم يستطع الفكر الطبي الحديث اليوم أن

يتعرف عليه إلا بعد تجارب موصولة حول مراحل تطور حياة الجنين التي تبدأ بإشعاع روح خلوية **Ame cellulaire** نص الحديث المذكور على بروزها منذ الأسبوع الأول من علوق النطفة ولذلك حظر الإسلام كل نوع من أنواع الإجهاض منذ اللحظة الأولى لهذا العلوق **Conception**.

إلا أن بيوت العلماء كانت أيضا مسرحا لدروس خصوصية في شتى مجالات المعرفة كمواد التفسير والحديث والطب وغير ذلك، وقد انبثقت هذه الدروس المزججة عن مزيد اهتمام بالمبادئ العامة للإسلام الذي اهتم بالطهارة كعلاج وقائي للجسم والروح كما دعا للإيمان بالله تعوذا من الخوف والقلق واليأس مع الابتعاد عن الخمر والمخدرات والميسر والقمار لطرد أسباب القلق، وقد ابرز الأستاذ (إيرنيست أدولف) الطبيب الجراح في جامعة (سان جون **St. John**) الأمريكية هذا الشرط في دعم العلاج الطبي الحقيقي .

وفي الوقت الذي فسح الإسلام المجال للدراسات والأبحاث والتجارب فازدهر الطب والتداوي عند العرب كما يقول ولتر في (مختصر التاريخ) "كان الأوروبيون يجهلون هذا العلم ويحتقرون أربابيه، إذ أن الكنيسة حظرت عليهم، وحصرت التداوي في زيارة الكنائس والاستشفاء بذخائر القديسين، وبالتعاويز والرقى التي كان رجال الدين يبيعونها، وكان الأوروبيون يستنكفون النظافة لأنها تشبه الوضوء عند المسلمين".

ومعلوم أن علماء ألمانيا الذين استطاعوا أن يكونوا لأنفسهم نظريات سليمة حول تاريخ الطب العربي ومنهم (ويستفلد) الذي كتب ثلاثمائة ترجمة لأطباء عرب . و (فيزيش) الذي درس الكتب اليونانية المعربة أو المنقولة إلى السريانية والأرامية والفارسية. وقد راجع (لوكليز) في باريس ما يوجد فيها من كتب طبية عربية يتراوح عددها بين مائتين وثلاثمائة . وإذا رجعنا إلى المصادر التي استقى منها العرب نلاحظ أن دراسة الطب في الإسكندرية كانت على أساس مجموعة من ستة عشر كتابا (لجالينوس **Gallienus** قد استعرضت في ثلاثة مصنفات هي : فهرست ابن النديم، وكتاب الحكماء للقفطي، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة وقد عرب (حنين) معظم كتب جالينوس . إلا أن الفكر الإسلامي بدأ يبتكر . حيث قرر المجتمع الطبي الأولية لجالينوس وابن سينا عام 1340 وفي عام 1500 حكموا بالسبق لابن سينا في خمس محاضرات من أصل عشر ولجالينوس في أربع ولابقراط **Hippocrate** في واحدة .

نعم في ظل الإسلام الذي شجع العلم وبجل العلماء ظهر أبو بكر محمد بن زكرياء الرازي الذي هو في الحقيقة أبو الطب العربي (وأفضل أن نقول الطب الإسلامي نظرا لكون الكثير من الأطباء المسلمين غير عرب) والذي ألف ما يناهز مائتي كتاب ترجمت جميعها إلى اللاتينية . وقد وصف الجذري والحصبة، كما أنه أول من استعمل الفتائل في العمليات الجراحية والأنابيب التي يمر منها الصديد والقيح والإفرازات السامة وكان طبيبا اخصائيا . ألف كتاب (أمراض الأطفال) و(تجارب المارستان) فكان منزله عيادة تخصصية تابع فيها تلامذته ودروسم وزاولوا تجاربهم.

وقد شعر المسلمون منذ القرن الثاني للهجرة بأهمية علم الصيدلة في التجارب الطبية، كما اقتنعوا بأن معرفة الكيمياء أساسية في البحوث الصيدلانية، حيث أكد (برتيلو) في كتابه (الكيمياء في القرون الوسطى) أن (كتب جابر بن حيان) في الكيمياء هي غاية ما وصل إليه العقل الإنساني من الابتكار . وقد سبق العرب الأوروبيين إلى تجهيز المخابر بآلات وفي طليعتها الأواني الزجاجية المحتوية على السوائل الملونة، والتي كانت من أول ابتكارات العرب، وكانت مدرسة النظامية في العراق ومدرسة نيسابور وراء النهر، و دار الحكمة بالقاهرة الفاطمية وكليات قرطبة مراكز بارزة خاصة في الأونة التي ظهر فيها ابن سينا **Avicenne** فكان أعظم مصنفاته الطبية بعد (القانون) أرجوزته المعروفة عند الأوروبيين ب(كانتيكوم) وكان كلاهما أسيسة للتجارب المارستانية والعيادية والجامعية في بحبوحة القرن الرابع الهجري، حيث كان جامع الأزهر وجامع القرويين وربما جامع الزيتونة مسارح لدراسة الطب كحصة في مناهج العلوم الإسلامية، وكانت هذه الجوامع تعتمد على كتاب (القانون) لابن سينا و (الهاوي) للرازي وكتاب علي بن عباس، وكلها تشكل أعظم عناصر الموسوعة الطبية التي أنتجها العرب . بل إن هذه الكتب ظلت ستة قرون – إلى القرن العاشر الهجري أو السادس عشر الميلادي – مرجعا أساسيا لكليات الطب الأوروبية كما ورد ذلك في قرار جامعي مؤرخ بعام 1617م. يدل على أن كتب الرازي وابن سينا أساس التعليم الطبي في جامعة (لوفان) التي أسست عام 1425م .

ولعل من فعالية تعليم الطب في الحقل الجامعي منذ القرن الثالث الهجري قيام المقتدر العباسي بتنظيم تدريس الطب وصناعته حرصا على مصلحة الجمهور، حيث ولي الخلافة عام 295هـ. ففرض تأدية امتحان بلغ عدد المتخرجين منه في جانيي بغداد عام (319هـ) (860) رجلا سوى من استغني عن امتحانه لمهارته (القفطي ص130) أما الصيادلة فقد أجري لهم امتحان أيام المعتصم عام (221هـ)

وقد برزت الدراسات الطبية بالأندلس في نفس الفترة حيث كان عدد الكليات أربعا وعشرين في أرباض قرطبة عاصمة الأمويين وفي هذا العصر عرف الطبيب محمد بن علي (المتوفى عام 391هـ). والذي عالج موضوعا طريفا في رسالته

(فطرة الطابع في سعة الطبائع) (نسخة مخطوطة في المكتبة العامة بالرباط عدد 1486) كما ظهر أعظم طبيب عربي هو أبو القاسم بن عباس الزهراوي صاحب كتاب (التعريف لمن عجز عن التأليف) وقد وصفه أحد الجراحين الغربيين بأنه أعظم طبيب في الجراحة اعتمده واستند إلى بحوثه جميع مؤلفي الجراحة في العصور الوسطى، وكتابه هو اللبنة الأولى في هذا الفن وهو أول من ربط الشرايين ووصف تقنيات عملية حصة المثانة واستخرجها بعملية جراحية وعالج الشلل وأول من استعمل خيوط الحرير في العمليات الجراحية. ولذلك اعتبره لوكلير (ج1 ص334) أكبر نموذج لعلم الجراحة في المدرسة العربية لا سيما وأن بحوثه الجامعية والعيادية قد عززت بوسائل إيضاحية.

وقد أفاد الشرق من تجارب الغرب الإسلامي منذ القرن الرابع الهجري حيث دخل محمد بن عبدون القرطبي بلاد الكنانة والبصرة، فببر مارستان مصر وعاد إلى الأندلس عام (360هـ) (نفح الطيب ج1 ص444) على أن الشرق عرف مختصرا في الطب لعبد المالك بن حبيب السلمي القرطبي المتوفى عام (238هـ) (توجد نسخة منه في المكتبة العامة بالرباط) (وأول من أدخل الطب إلى المغرب إسحاق بن عمران وأحمد بن إبراهيم المعروف بابن الجزار (ت395هـ). صاحب (زاد المسافر) (يوجد الجزء الأول منه في المكتبة العامة بالرباط) وكذلك (مختصر كتاب الاعتماد في الأدوية المفردة) لابن الجزار أيضا مرتبا على الحروف وصاحب (الاختصار) مجهول ولعله إسحاق بن عمران.

وقد شهدت المغرب الثلاثة في هذه الفترة جملة من الأطباء المهرة، حيث روى القفطي في (إخبار الحكماء) أن المعز الفاطمي كان مرفقا إلى الكنانة بفرد من هؤلاء الحكماء. على أن حركة الترجمة في إفريقية تأسست منذ ظهر (قسطنطين) التونسي الصقلي، مؤسس مدرسة (سالرنة Salerne) بإيطاليا، وهي أول مدرسة من نوعها في أوربا فكانت مبعث أنوار الطب الحديث في أوربا. وقد ولد قسطنطين بتونس حوالي 400هـ. وترجم إلى اللاتينية أهم كتب الطب العربي كزاد المسافر وكتب الرازي. وألف نحواً من أربعة وعشرين كتاباً منها: (قانون الطب) في اثني عشر مجلداً. وقد قام يونس العربي الفاسي بالتدريس في معهد سالرنة هذه (اللسان العربي ج5). إلا أننا لا نعرف بالضبط متى ازدهر الطب في المغرب الأقصى وإن كان (لوكلير) يؤكد (ج1 ص334) ابتداء ازدهاره خلال القرن العاشر الميلادي (أي الرابع الهجري) ملاحظاً أن المغرب أشد بلاد الإسلام عمقا من الناحية العلمية (ج1 ص407). وقد أشير إلى وجود مدرسة طبية بفاس في هذا العصر (حسب شهيرات المغرب للكانوني العبدى) وإن كنا لم نجد ما يؤكد ذلك.

وقد أسس جامع القرويين عام (245هـ) (أي قبل جامع الأزهر بقرن تقريبا) ولكن نشاطه الجامعي لم يبدأ إلا منذ القرن الخامس الهجري وقد اعتبرت فاس من طرف (باديا ليليش Badia Leblich) المعروف (بعلي باي العباسي) بمثابة (أثينة) إفريقية. كما وصف (دلفان) في كتابه عن القرويين جامعة فاس بأنها "أول مدرسة في الدنيا" (ص12) وردد الدكتور (رينو) القول بأن مدينة فاس التي جلبت طلبية العالم كانت تدرس فيها جميع العلوم والفنون والآداب (الطب القديم بالمغرب ص17)، ولاحظ (دوكامبو DeCampou) في كتابه (المغرب المعاصر مملكة تنهار - باريس 1886 ص12) أن هذه الجامعة كانت ملتقى الأجانب من مختلف الجنسيات والأديان.

وأشار (كابريال شارمس Gabriel Charmes) في كتابه (سفارة إلى المغرب ص254) أن العلوم والفنون كانت تنتشر منها إلى أوربا، بل إن كل مدارس فاس كانت أولى مدارس العالم (ص297) يوم كانت فاس مركز القوة العربية ورثت مكانة قرطبة والقيروان، ومنها انبثق ما يسمى بالحضارة العربية التي أشع نورها - كما يقول أيضا - في أسبانيا فأضاء جوانب أوربا المتوحشة. وقد نهل من معينها كما قيل (جيربير Gerbert) الذي اعتلى أريكة البابوية عام 999م باسم (سيلفستر الثاني Sylvestre II).

وقد أكد (رينو) أن علم الطب كان يدرس في جامعة القرويين بواسطة كتب (أبقراط) و(جالينوس) و(ديوجينوس) المعربة وأرى أن احتواء خزانة القرويين على جملة مؤلفات لأطباء مسلمين دون أخرى يدل على نوعية الدراسات الطبية المنتقاة في القرويين وإن كان الكثير من مخطوطات الجامعة قد ضاع أو نقل إلى الاسكوريال في قصة المولى زيدان بن المنصور السعدي، فابرز الكتب التي كانت - على ما يلوح - منطلق التعليم الطبي بالقرويين هي:

1- (عمل من طب لمن حب) لابن الخطيب (حق 40 / 607 - 160 ورقة / حق 201 / 40) (10) حبسه السلطان مولاي عبد الله بن إسماعيل (3477) عام 1156هـ. وهو في جزئين يعدد الأمراض من الرأس إلى القدم الخاصة ببعض الأعضاء، مع تعريف لكل مرض وأعراضه وأنواع العلاج، وله أيضا (الوصول لحفظ الصحة في الفصول) (جزءان خع 652د 100 ورقة) / 1570 د / حق 50 - الخزنة الحسنية 979).

2- (شرح أرجوزة ابن سينا) حق 342 / (حق 1970 95 ورقة) الأزهر 475.

3- (تنزيل أرجوزة ابن سينا) لمحمد بن زكور الفاسي المتوفى عام (1120هـ / 1708م).

- 4- (الأدوية المفردة) لأحمد أبي جعفر الغافقي المتوفى عام 560 هـ. (جزءان في حق : ق155 / الجزء الأول في خزانة تمكروت.
- 5- (التيسير في مداواة والتدبير) لابن زهر حق : ق195
- 6- (الأرجوزة في الطب) لابن طفيل المتوفى بمراكش عام (581 هـ - 1186 م). /نسختان في : حق 3158 / 50 ل - حق 3158 40 ل
- 7- (مختصر في الطب) لابن حبيب صاحب كتاب (الواضحة في السنن) (الفقه) المتوفى عام (238 هـ 886 م) توجد قطع منه في مكتبة جامعة القرويين .
- 8- (الاستقصاء والإبرام في علاج الجراحات والأورام) لمحمد ابن علي الشفرة القربلياني الطبيب الجراح بمراكش (761 هـ) (توجد نسخة منه في خزانة القرويين منسوبة لمحمد بن فرج المعروف بالشفرة (هكذا) في ثلاثة أجزاء).
- وقد استمر التعليم الرسمي للطب في جامعة القرويين وباقي مساجد المغرب إلى القرن الماضي (رينو ص77) وقد أشار (دلفان Delphin) في كتابه حول جامعة القرويين إلى اعتناء الطلبة بجملة من الكتب الطبية مثل ما ذكرناه بالإضافة إلى (زبدة الطب) للجرجاني و (التذكرة) للسويدي و (تذكرة الأنطاكي) و (كليات) ابن رشد و (مفردات) ابن البيطار و (كشف الرموز) لابن حمادوش الجزائري (في شرح العقاقير والأعشاب) يحتوي على ألف عشية مرتبة ألفبائيا .
- إلا أن دراسة الطب تهللت في الواقع وأصبحت لا تتجاوز المبادئ الصحية العامة والعلاجات التطبيقية بالأعشاب فأصبح بعض الفقهاء والمحدثين يؤلفون في الطب مثل ابن قنفذ (المتوفى عام 810 هـ) صاحب الأرجوزة في الأغذية والأشربة (توجد نسخة في الخزانة الحسنية بالرباط رقم 515 تحتوي على 282 بيتا). وقد انصب التأليف خاصة حول (تذكرة الأنطاكي) التي كان الفقيه أحمد الحضيكي يحفظها عن ظهر قلب كما يحفظ كتاب الزهراوي ويسردهما في دروسه للطلبة مع تعليق على شرح ابن رشد لأرجوزة ابن سينا . وقد صنف الطبيب عبد السلام بن محمد العلمي المتوفى عام 1323 هـ. كتابه (ضياء النبراس في حل مفردات الأنطاكي بلغة أهل فاس) طبع بفاس عام 1318 هـ وقد انتقد المؤرخ القادري في كتابه (نشر المثاني ج 2 ص123) كتاب (التذكرة) ملاحظا أن الانطاكي أودعها غثا وسمينا . وكذلك رسالته الأخرى المسماة (الزهره المبهجة في تشخيص الأذهان وتعديل الأمزجة) (توجد نسخة منها في المكتبة العامة بالرباط) وقد لاحظ القادري أنها أكثر تحريرا وأسلم إيرادا . وقد اقتصر البعض على مجرد اختصار تذكرة الأنطاكي مثل إبراهيم بن أحمد التادلي المتوفى عام 1311 هـ. وهي (التذكار لما في التذكرة من الطب مع الاختصار) .
- وكانت دراسات طبية في القرويين تكال بشهادة تخول للطبيب، فقد أشار (رينو) في كتابه (ص 121) إلى اجتماع عقده أربعة من علماء فاس في ثامن شوال (1310 هـ / 1896 م) لامتحان طبيب مغربي، فشهدوا بعد استفساره بتضلعه في (الطب وقوانينه وتطبيقاته، ومعرفته بتركيب الأدوية وتقاسيم الشرايين ووظائفها وعددها، وعدد العظام، وتمييزه بين أنواع العصب والعضلات في الجسم ومعرفة النباتات والأزهار والأعشاب الطبية وخواصها وأسمائها وطرق إزالتها في الوقت الصالح والأوقات المناسبة لوصفها للمرضى وبعد المداولة بين العلماء خولوا الطبيب إجازة (licence) وقد حصل على نفس الإجازة في الطب الكحاك عام 1832 هـ ففتح دكانا للعلاج بفاس .
- غير أن التعليم بدأ يتهلل بسبب تأزم القضية السياسية وتدخل أوربا في شؤون المغرب بعد توقيعها على معاهدات سرية عام 1906 م.
- فاقتصرت دراسة الطب على مصنفات عامة كمقالة (حفظ الصحة) لابن رشد، (الإسكوريال 7/884) و (تدبير الصحة) لأحمد بن الحسن القضاعي المتوفى بمراكش عام (598 هـ) وأرجوزة في (حفظ الصحة) لعبد الكريم بن مومن بن يحيى وزير المنصور الموحدي .
- وقد شمل هذا التقلص سائر مساجد المغرب وإن كانت الصحراء مثلا قد أنجبت أمثال الشيخ ماء العينين المتوفى عام (1328 هـ / 1910 م) صاحب (شفاء الأنفاس فيما ينفع الأسنان وخصوصا الأضراس) و(منظومة في علم الطب) وكذلك طبيب تافيلالت عبد الله بن هاشم العلوي البلغيثي المتوفى عام (1304 هـ) الذي درس الطب عن عمه بالصحراء وعاد إلى فاس ليفتح بها دكان علاج .
- و هذا النقص هو الذي حدا المولى الحسن الأول إلى إرسال بعثات طلابية إلى الشرق أو الغرب حيث تخرج جملة من الأطباء منهم: شاكور السلاوي الذي درس الطب في الكلية العثمانية عام (1323 هـ)، وأحمد الطنجي التسماني الذي درس الطب بأوربا وفتح دكان علاج بفاس عام (1347 هـ / 1928 م) (الطب العربي للكانوني مخطوط شخصي ص 121). والشريف عبد السلام العلمي الذي تلقى تعاليمه بالإسبالية المصرية بالقاهرة وفتح مصحة صغيرة قرب الحرم الإدريسي

بفاس حتى توفي عام 1323 هـ، وصنف كتابه (الضياء) حيث وصف بعض الأمراض الباطنة وعلوم التشريح العضلي والكيمياء والمستحضرات الصيدلانية وطب الرمد والأمراض الجلدية والزهري وأمراض النساء والأطفال... الخ. وقد تابع في العهد الحسني زيادة على أولئك ستة أطباء تمارين في المستشفى الأسباني بطنجة، ولاحظ (رينو) أن ثلاثة منهم أصبحوا يمارسون في طنجة ومراكش داخل الجيش وقد استفاد الناس من تجاربهم (ص60).

والمواقع أن هذه الدراسة التي توبعت في الجوامع والمساجد والتي اقتصرنا أحيانا على شرح بعض الكتب المبسطة للطلبة وجمهور العوام قد ساعد على ضمان نوع من التوعية للحفاظ على السلامة الجسمية .

نعم إن بساطة العيش والحمية الاضطرابية واللجوء إلى الطبيعة وأعشابها هي التي قلصت الأدوية والعاهات والأوبئة وويلاتها وذلك بالرغم مما أصاب العلوم الطبية والصيدلانية من نكسات بدأت بالغزو اليبيري على المغرب حيث استولى البرتغاليون على سبتة عام (818 هـ) ثم قصر المجاز (القصر الصغير) عام (862 هـ) وطنجة عام (869) وأصيلا وأنفا في حدود (876) والجديدة عام (907) والعرائش عام (912) وأزمور عام 914 والمعمورة (المهدية) في حدود (920) فطويت هذه العلوم في شمال المغرب على اثر سقوط سبتة التي ازدهرت فيها الفلسفة والطب، وقد الفت فيها مصنفات في العهد المريني منها (بلغة الأمنية وقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب).

وفي الشرق بدأ عصر الانحطاط العلمي في القرن الثامن وبداية القرن التاسع على اثر هجمات (جنكيزخان) و(تيمورلنك) حتى قال لوكير (ج2 ص258) بأنه لم يمكن في هذه الفترة تسجيل أكثر من أربعين عالما نصفهم من الأندلس لا يوجد بينهم طبيب مشهور لقلة الطرافة والاكتفاء بالجمع والتأليف وقد أكد (رينو) (الطب القديم بالمغرب ص75) انه لم يذكر أي طبيب مغربي في المصنفات الكلاسيكية من عهد المرينيين إلى القرن الثامن عشر وإن كان (ليفى بروفنسال) قد لاحظ في كتابه (مؤرخو الشرفاء): "تهضة المغرب من الوجهة الأدبية" مؤكدا "أن من الغريب أن لا نجد مثل هذه النهضة في العلوم"، غير أن وجود بادرات نادرة في هذا الحقل لا تبرر في نظري وصف المغرب بالاستمرارية في هذا المجال وقد أشرت في كتابي (الطب والأطباء بالمغرب) إلى عشرات من هؤلاء الرجال الذين حاولوا ربط الماضي بالحاضر الموصول حتى ظهر أمثال أبي القاسم الوزير الغساني (المولود عام 960 هـ) صاحب (حديقة الأزهار في شرح ماهية العشب والعقار) الذي قال عنه الدكتور (رينو) في نشرة "معهد الدروس المغربية العليا" (ج18 ص195) "أنه كتاب يمتاز بمنهاجه الواضح في الوصف النباتي المتسم غالبا بالأصالة والطرافة مع محاولة جريئة لوصف الأعشاب والمواد الصيدلانية بفاس وترتيب ثلاثي يدخل عنصرا جديدا في وصف أعشاب المدرسة الصيدلانية الشرقية"، ومنهم أيضا الطبيب عبد الوهاب طبيب المولى إسماعيل ومحمد بن سعيد المرغني المتوفى عام (1089 هـ) والذي كان ينظر في قوارير البول ومحمد العياشي .

تلك نظرة مكبرة عن دور جامعة القرويين وكلية ابن يوسف بمراكش ومساجد المغرب في احتضان علوم الطب والصيدلة طوال ألف عام، وإسهامها في تطويرها وتبسيطها ونشر مبادئها وتطبيقاتها للعوام في الدروس الشعبية بالمساجد .

ويعتبر المغرب من أغنى الدول في الأعشاب العطرية والطبية التي تستخرج منها الزيوت والأدهان منها (الشببة) **absinthe** والبشنيخة (**ammi**) وحب حلاوة (**anis vert**) وبوخنو (**arbousier**) وشيش لحريشي (**armoise**) والسكوم (**asperge**) والحبق (**basilic**) واللرنج (**bigaradier**) ومصلح أندر (**bouillon blanc**) وشجرة مريم (**camomille bleue**) والخروب (**caroubier**) والكروية (**carvi**) والأرز **cèdre de l'Atlas** والهندابة (**chicorée**) والقزبور (**coriandre**) وحب الرشاد (**cresson alénois**) والسواك (ورق الكركاع **noyer**)

والزعر (**origan**) وحرايقة (**ortie blanche**) وحمایضة (**oseille**) والمعدنوس (**persil**) والعشبة **petit houx** والخص بري (**pissenlit**) وإيجير (**romarin**) والورد البلدي (**rose pâle**) وهراس الحجر (**casse-pierres**) والزعفران (**safran**) وسرغينة (**saghine**) وتكناشت (**saponiare**) والسعتر (**serpollet**) والجنجلان (**sésame**) وزعيرة (**thym**) واللويضة **verveine** والكمون **cumin** والعرعار (**cyprès**) والكالبتوس (**eucalyptus**) والنافع (**fenouil**) والحلبة (**fenugrec**) وأم إيبينة (**fumeterre**) والعطرشة (**géranium**) وشنتكورة (**germandrée**) والحنا (**henné**) وورق سيدنا (**laurier**) وورق موسى **noble sauce** والخزامة (**lavande**) ومرددوش (**marjolaine**) ومريوت **marrube blanc** والبانونج (**matricaire**) وخبيزة أو البقولة (**mauve**) والنعناع الصوفي (**mélisse**) وفليو (**menthe pouliot**) ويسمى بالفصحي (الغبيراء) وتيمجة (**ronde**) والنعناع

(menthe verte) والكركارز (moutarde sauvage) والكوزة muscade وطيب الريحان (myrte) والمزاح (néflier) والشنوج (أصله الشونيج) nigelle .

وقد جمع صلى الله عليه وسلم بين الطب المادي والطب الروحي حيث استعمل عندما لدغته عقرب الماء والملح مع قراءة شيء من القرآن فضرب لنا مثلا لإمكان الجمع بين الطيبين وهذا الطبيب (الكسيس كاريل) Alexis Carrel صاحب (الإنسان ذلك المجهول) قد أكد في كتابه آخر سماه (La prière) (أي الصلاة أو الدعاء) ما ثبت لديه بالبرهان الفعلي أن كثيرا من الأمراض التي عجز الطب العلمي عن معالجتها تعالج بالتوجه إلى الله وهو كلام صادر عن عالم له صيت عالمي حاصل على (جائزة نوبل) في الطب والكيمياء وهناك طبيب أمريكي هو بول إرنست Paul Ernest Adolph الأستاذ في جامعة سان جوهن Saint John وصف في كتابه (الصحة تنتشر) (La Santé se répand) كيف أن الإيمان بالله كان جزءا هاما في العلاج النفساني والطبي وكيف حقق نتائج خارقة للعادة ملاحظا أنه لا يمكنه حصر حالات هذا العلاج.

أما عدد الأطباء فقد بلغ عام 1961 مائة (100) بدل (8.000) عام 1990 و (25.000) مساعد صحي و (26.000) سرير في المستشفيات.

المراجع

- لوكلير - تاريخ طب العرب (مجلدان) ط. بيروت وأعدت طبعه وزارة الأوقاف المغربية ج II ص513.
- لوكلير - تاريخ طب العرب ج 1 ص4.
- نفسه ج 1 ص9.
- كازيبيط المستشفيات عدد مارس 1932، محاضرة الأستاذ فوكس.
- لوكلير تاريخ طب العرب ج 1 ص470.
- أعراف المسلمين وعاداتهم - كوتيي ص245. وهذه الجامعة توجد في بلجيكا وكانت قد ألغيت عام 1791، ثم أعيدت عام 1835 كجامعة كاثوليكية.
- يوجد في المكتبة العامة بالرباط مخطوط عدد 1428د، حيث ورد في المقالة الثامنة من كتاب التعريف قسم يحتوي على 28 صورة جرائد الكي والمكاوي التي تختلف حسب العضو المريض من الرأس إلى الأذن إلى الرحم والمثانة ... الخ.

- حق هي رمز لخزانة جامعة القرويين وخع للخزانة العامة بالرباط وخع للخزانة الحسنية بالرباط أيضا